

المُتَدَمِّمَة

ان حياة العبقري تنبع من عالم أسمى ، لذا فهي تعيش غريبة عن حياة سائر الناس . وهذا يفسر ما عساه يبدو في كيان العبقري من الشذوذ . فلا ينبغي أن تفهم حياته فهما هندسيا ، ولا أن يتخذ مقياس عقله شكلا منطقيا ، ولا أن تستعرض أيام وجوده فيما تقاس به حياة غيره من الناس في تصرفاتهم وتقلباتهم ، وفي مجرى الحوادث وآثارها فيهم ، وفي خضوعهم للبيئة وتأثيرها عليهم .

وبين يدينا الآن من ألوان العبقرية سفر مفصل يقدم « فردريك شوبان » الى قراء العربية ، ويعرض له في مراحل حياته المختلفة في اطار من التحليل والتعليق .

ولم يكن من الميسور أن يلتبس « شوبان » الا في مجموعة من المصادر والمراجع والوثائق التاريخية ، وفي لغات متعددة . على أن هذه المجموعات الإضافية لم تخل في أحيان كثيرة من التناقض والتضارب ، فكان على المؤرخ الأمين أن يستجمع ويحلل ويقارن ويوازن ويضع جميع الحوادث تحت منظار البحث الدقيق حتى يستخلص الحقيقة من هذه التيارات المتعارضة والآراء المتناقضة . وهذا ما أخذت به نفسي عند تصنيف هذا الكتاب ليكون بالنسبة الى تاريخ « شوبان » أحد مصادره العلمية العالمية ، محتويا على عصارة العقول الفاحصة التي تبارت في حلبة التصنيف والكتابة

عنه مائة عام متواصلة . وهو بهذا يعتبر آخر ما سجل التاريخ
وخاتمة ما انتهت اليه البحوث الى الآن .

ولا ندعى لهذا الكتاب أنه التفصيل الجامع والموسوعة الشاملة
لكل خطوات « شوبان » وتراثه الفنى فان ذلك غير مستطاع
فى مؤلف واحد . وانما نهدف الى التعريف به والابانة عنه بما فيه
كفاية وغناء لما يتطلبه المثقف والدارس ومحب الاطلاع . وفيما بعد
ذلك يتسع مجال المزيد لمن يريد .

وقد أتاحت لنا حياة « شوبان » فرصة ذهبية نكشف فيها
عن شخصية بارزة للفنان الذى يكون فى حياته مثال الانسان
الرفيع ، والوطنى الغيور ، والصدىق الوفى ، والابن البار ،
والأريجى العطوف ، والمحب المتفانى ، والفنان المستغرق ،
والموسيقى الشاعر ، والقارئ المستطلع ، والرحالة الباحث ،
والمكافح الصبور . وفى هذه الحياة أمثلة بارزة لأسمى طرائق
التربية ووسائل التهذيب . وهى تحقق كثيرا من الأهداف التى
يطمح اليها ولا يستغنى عنها المرءون . وما ظنك بعبرى والده
معلم مجرب ، وهو أيضا معلم تخرج فى مدرسة الأيام بعد
مدرسة أبيه .

ولو أتيج لنا أن نقدم « شوبان » فى منظره ومظهره ومخبره
بريشة المصور فماذا عسى أن نتبين من هذا العبرى ؟ . نرى
شابا وسيم الطلعة ، طلق الحيا ، متوسط القامة ، رقيق الحاشية ،
تعلو وجهه ابتسامة خالية من كل مرارة حتى فى أمر آلامه :

له شعر غزير ناعم كالحرير ، وقد بدا أنفه في اعوجاج خفيف على الأسلوب الرومانى ، يشبه كثيرا ملامح والدته . وهو متجمل فى ملبسه ، متأق فى حركاته ، أرستقراطى فى مظهره وفى معاملاته كأئبل الأشراف . لا يسع من يراد لأول مرة الا أن يحكم بأنه انسان من طراز غير عادى . فهو مرح الروح ولكن قلبه مثقل بالجوى والأحلام ، قليل التحدث عن أحاسيسه ، محبب الى المجتمعات ، تتخاطفه « صالونات » باريس مما كان يضطره الى التردد على ما يربى على الثلاثين منها ليرضى من لا يحصى عددهم من محبيه والمتشوفين الى الاستمتاع بفضه وعبقريته وشخصيته المحبوبة . وقد كلفه ذلك ثمنا باهظا من صحته التى أفناها فى تلك الليالى الساهرة التى سنرى الى أى حد كان أثرها فى حياته .

وكان عظيم الاعتزاز بفضه ، مقدراله فى غير ما صلف ولا غرور . ولم يحاول قط أن ينتقص فنانا فى قيمته ، بل كان يقدر لزملائه فضلهم ويعرف لفضهم قدره . على أنه لم يكن ليمتدح شاعرا أو موسيقيا أو مصورا ما لم يكن ذلك صادرا عن ايمان مبعثه الحمد والثناء . فرجا تنكر لاتتاج أقرب أصدقائه لديه اذا لم يجد فيه ما يرتاح اليه .

وإذا قلنا ان « شوبان » كان انسانيا محسنا بارا فسترى فى هذا السفر أمثلة تنطق بذلك وحدها . وحسب القارىء أن يعلم أن أولى حفلاته فى طفولته كانت لمساعدة شاعر هرم ، كما كان آخر حفل له فى حياته من أجل مساعدة مهاجرى بولونيا فى لندن .

وكان أحب شيء إليه مواساة الصديق ، بقدر ما كان يبغض من يحاول استغلاله .

وكان « شوبان » يحقت الأثرة ، ويحترق عباد المادة . أقام مواطنه عازف الكمان الشهير كارل لينسكى (Carl Lipinski) عدة حفلات في باريس عام ١٨٣٥ فالتمس منه « شوبان » أن يخصص إيراد بعض حفلاته لمهاجرى بولونيا الفقراء فاعتذر بأن ذلك يغضب روسيا التي يعترزم إقامة بعض الحفلات في عاصمتها . فوجد « شوبان » في هذه الأجابة من القحة والندالة ما جعله يتخلى عن صداقته الى الأبد .

ومع أن « شوبان » كان مسيحيا كاثوليكيا فلم يكن ميل الى الجدل الدينى أو النقاش السياسى ، وإن كان لا يرفض الاستماع الى الأحاديث فيهما .

أما اتجاهه الفنى فهو الأخذ بأقرب جديد وأحدث مدرسة . وقد وجد في باريس أول عهده بها قطبين يرفعان علم الاتجاه الموسيقى الجديد وهما برليوز ولست . وكانا أكبر مناضلين يكافحان ضد مدرسة الكلاسيك . ومنذ عام ١٨٣٢ ارتبط « شوبان » بهذين العلمين وانتظم فى عقدهما عاملا معهما على تحقيق رسالة المذهب الجديد الذى أطلق عليه الفن « الرومانتيكى » . وقد ظل مخلصا لهذا الاتجاه طوال حياته .

ولم يكن يعنيه أمر الدعاية لمؤلفاته ومحاولة فرضها والاعلان عنها . وحسبنا فى ذلك ما كتبه الى أحد أصدقائه يقول :

« انى لعلى ثقة من أن القيمة الحقيقية لمؤلفاتي هي التي ستعلن عن نفسها . أما انها ستعرف اليوم أو غدا فذلك عندي سواء » .

وكان « شوبان » يبالغ في الاهتمام باتنتاجه والعناية باجاداته ، بما سد على النقاد مسالك الانتقاص الذي حاولوا تلمسه في فنه فلم يجدوا اليه سبيلا . بل لقد كان هو ناقد نفسه يلقي بما لا يروقه في سلة المهملات ، مما لو وقع لغيره لأعجب به وعده من المفاخر . ولما تألق نجمه في سماء باريس وأصبح فنانا تعتر به أمة ، وتفاخر به قومية ودولة ، أخذت الأجناس تتنازعه وتتبارى في نسبه اليها لتضيف به صحيفة مجد فني الى سجل مفاخرها . فهذه ألمانيا التي لا تنقصها ثروة النبوغ الموسيقي بفضل أعلامها الأفذاذ العديدين تحاول أن تنسب « شوبان » اليها بحجة أن أسرته تنحدر من احدى عشائر اللورين وهي أرض ألمانية . وتلك فرنسا تنسب اليها بعراقة الأصل ، والدم ، والبيت ، والسلالة ، والقرابة ، والاسم . أما « شوبان » نفسه فقد كان معارضا لكل شيء يخالف نسبه الى بولونيا . فيولونيا هي وطنه الذي يعتز به فينطق بلغته ، ويعتد برنينها الموسيقي ، ويصفها بثرائها في التعبير الذي يجمع بين الرقة والقوة . وقد نطق تاريخ حياته في جميع مراحلها بمبلغ اعترازه بيولونيا قولاً واحساساً واتناجاً . وفي أدوار تاريخه من هذا الكتاب ما يوقفك على مبلغ تمسكه بحب بولونيا التي هي عماد قوميته ومبعث وطنيته ، فكأنه يقول بلسان الشاعر العربي :

بلاد بها نيطت على تمائمي وأول أرض مس جلدي تراها

* * *

وهذا المصنف عن « شوبان » يصدر لمناسبة الذكرى المئوية لوفاته . فقد غرب نجم عبقرته الفذة في السابع عشر من أكتوبر عام ١٨٤٩ ، ففى مثل هذا التاريخ من أكتوبر سنة ١٩٤٩ يكون قد انقضت مائة عام على وفاته . وقد اعترفت دولته بولونيا أن تقيم لتكريم هذه الذكرى وتخليد تلك العبقرية مهرجانا عاما تعتقد فيه أكاليل المجد لهذا الذى جعل قلبه وقفا على حب وطنه ، وموسيقاه نشيدا لاعلاء فن بلاده .

وقد شاءت الحكومة المصرية أن تساهم فى تكريم هذا التراث العالمى ، وأن ترفع صوتها فى طليعة من يقدرون الفنان العظيم قدره من دول العالم وشعوبه . فمصر أم الموسيقى ومصدر اشعاعها الأول منذ فجر التاريخ ، وعلى شاطئها نيلها جلجلت أبواق الفن بتقديس الآلهة ، تلبى اليوم الدعوة لتكريم ذكرى « شوبان » وهى جد مغتبطه بأن يتاح لها اظهار شخصيتها الفنية واثبات كيانها الموسيقى . والأمة التى تستطيع أن تعبر عن وجودها فى أعياد الموسيقى ومناسباتها هى فى الواقع تترجم عن وجودها فى جميع نواحي النهضة ، لأن الموسيقى هى التصوير الصادق لكل ما فى حياة الأمم . وقد فوضت مصر أمر تنظيم القيام بواجبها والمساهمة بنصيبها فى هذا التكريم الى لجنة مشكلة من أجل الشخصيات التى يتمثل فى مجموعها مزايا العلم والفن والمكانة فى الدولة .

ولما كان من أهم ما تتجه اليه جهود هذه اللجنة تصنيف كتاب عن « شوبان » فى مناسبة هذا المهرجان ، وكنت معنيا فى جميع

دراساتي الموسيقية بهذه الناحية التاريخية من حياة هؤلاء الأعلام ،
ومن بينهم عبقرى بولونيا ، هذا الذى أملت بتاريخه فى عدة فصول ،
منها ما أصدرته عام ١٩٢٤ ومنها ما ظهر عنه أيضا فى كتابى « أعلام
الغرب » فى السنة الماضية (١٩٤٨) . لهذا فقد أولتني اللجنة شرفا
عظيما يوم أسندت الى مهمة وضع هذا الكتاب . وأرجو أن يكون
هذا المجهود المتواضع وافيا بالغرض الذى تنشده اللجنة ، وأن
أكون فى الوقت عينه قد قدمت لأبناء وطنى ولقراء العربية تاريخ
شخصية ممتازة جمعت فى طرافتها من الحوادث والمزايا والآثار الفنية
الخالدة ما يسترعى اهتمام كل مؤرخ ، وعناية كل باحث ، واطلاع
كل أديب . فحياة شوبان فى نشأته ، وتربيته ، وأطوار نبوغه ،
وفى إنتاجه ومآثره ، ومسراته ومآسيه ، قصة انسانية يتسع فيها
مجال العبرة والتأمل لمن أراد أن يضعها فى كل ناحية من هذه النواحي
تحت مجهر الفحص والتحليل . وما أحرى بنا فى نهضتنا الحاضرة
الى دراسة رجال من نوع « شوبان » .

وانى لآمل أن تجد مصر والعروبة فى هذا المؤلف ما اتجهت اليه
من هذه المعانى التاريخية والفنية ، والمزايا الأدبية والانسانية .
كما أرجو أن تكون مصر قد أدت بهذا الكتاب واجبها نحو تقدير
هذا الفنان ، بما هو جدير بمقامها الدولى فى الفن ، ومكاتها العالمية فى
الموسيقى ، متجها الى الله أن يكتب لنهضتنا الموسيقية دوام التوفيق
فى ظل جلاله وليكننا المعظم ، حامى الفنون وراعى الموسيقى ،
فاروق الأول ، حفظ الله ملكه ، وأدام باليمن عهده .

المؤلف